الكتاب الأول
فرنسا في أوج عظمتها
١٦٤٣ — ١٧١٥

الفصل الأول

الشمس تشرق

١٦٤٣ — ٨٤

١ - مازاران والفروند: ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أمان فرنسا على أن تفرض على أوربا الغربية منذ ١٦٤٣ ، سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ، وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثالين والمعماريين ، أو حظيت بمثل الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء فى آداب المجتمع أوالأزياء أو الأفكار أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى ١٧١٥ لقد كان الأجانب يؤمون باريس وكأنهم يؤمون مدرسة تهذيبية تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل . وكان الألوف من الايطاليين ، والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ سكانها عشرين مليونا من الأنفس فى ١٦٦٠ ، فى حين لم يزد سكان كل من أسبانيا وانجلترا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة ، والجمهورية الهولندية على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى شملت ألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا ، ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها» ،

جلها صغير مستضعف ، ولكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها ، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين — وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافيا ، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة ، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الألمعية عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا فى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية ، عقداً بعد عقد ، تقع فى قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبريائها وزعامتها فى روكروا (١٦٤٣) وصلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية فى العالم المسيحى ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاما ترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجيش الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهمها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظمة لم تكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذى بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذى كان يسمى فى إيطاليا جوليو مازاريني ، وقد ولد فى « الأبروتزى » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه فى روما ، وخدم البابوات موظفا دبلوماسيا ، ثم لفت أنظار أوربا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (١٦٣٠) بمفاوضة لبقة حرجة . فلما أوفده البابا مبعوثا له فى باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكردينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أكد للملك أنه لايعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه » (١). واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلعت الملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكوندبه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتهما واستوزرت ذلك الإيطالى الوسيم ، الذى بلغ الآن الحاديه والأربعين . وفى غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبأ انتصار روكروا الحاسم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء فى الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه فى حسن تخيره للسياسات ، والقواد العسكريين ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذى أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيهما ريشليو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبى عقبة فى طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسى وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا له . ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطفاله بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها فى مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الاقطاع . وفى سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذى يذكر الفقر أو يخشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، التى بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها لكنته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا : لاسيما بنات أخيه ، اللاتى تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم والحشم . وقد احتقره الكردينال رتز ، مع أن رتز هذا لم

يكن ركناً ركيناً للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... وشرير لئيم(٢) ». على أن رتز ـ بعد أن هزمه مازاران ـ لم يكن فى وضع يعينه على إنصاف غريمه. وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكتراث للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فملأ حجراته بالكتب والتحف التى أوصى بها بعد ذلك لفرنسا وكان ذا أسلوب مرح مهذب يلذ السيدات ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل ، بأنه : « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو(٣). وكان سريع العفو عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه. وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهداً فى حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفانى كان يسىء إلى بعض الناس ، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض فى حجرات انتظاره . وكان كل إنسان فى رأيه قابلا للرشوة ، وكان عديم الإحساس بالنزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التى أرجفت بأنه جعل من مليكته خليلة له. وقد صدم الكثيرين فى البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين(٤)، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد فشت بعد فى المجتمع الفرنسى ، ومن ثم عزوا تسامحه الدينى إلى افتقاره للايمان(٥). وكان من أول أعماله توكيد مرسوم نانت ، فسمح للهيجونوت بأن يعقدوا مجامعهم فى سلام . ولم يكابد أى فرنسى الاضطهاد الدينى من الحكومة المركزية فى عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له لقد كره الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب، وكره التجار لأن المكوس التى فرضها أضرت بالتجارة، وكره الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات » لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألفت نفسها فى وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا فى طفولة الملك ، وفى ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين عللو أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعيةالسابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التى تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليجاركيه من المحامين . إزاء هاتين القوتين ـ « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهدا ـ التمست الملكة درعا لها فى عناد مازاران المقترن بالمرونة و لدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤلفان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ — ٤٩) محاولا أن يكرر فى فرنسا تلك الحركة التى كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزى فوق الملك مصدراً للقانون وحكما فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابى . ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال فى برلمان انجلترة ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائيه عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان فى الإمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث ـ النبلاء ورجال الدين وباقى الشعب ـ إلى مجلس نيابى يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أى ملك منذ ١٦١٤ ، ولن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئه نيابية بصورة غير مباشرة ، مؤقتا، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فنرى أومير تالون ، فى

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التى أفقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن ينتاموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمكينا لنفر من الناس من أن ينعموا فى باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار .. فاقده كل شىء إلا نفوسها — وهذه لم تترك لها إلا لان أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع(٦).

وفى ١٢ يوليو، انعقد البرلمان فى قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لهما ثورية . فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين intendants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع انجلترة فى تطورها السياسى .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضى جذور أقوى من الصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة، وقد أحست أن التخلى عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها فى صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التى يستمدها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التى تمتع بها أبوه (أو ريشيليو) ! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه فى هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتسلطين .. ومن ثم أمر فى ٢٦ أوغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان : بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذى أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجوندى — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غاضبا ، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية فى محاولة الظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفى ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكى مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحى الملك! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هى والملك الصبى فى ضاحية رويل وأجاب مازاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله فى تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بمازاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشترى الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفى ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها فى أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء فى هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كونتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة. فأقبلت دوقة بويون ودوقة لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش فى الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن فى قاعة المدينة ، وواصلت دوقة لونجفيل غرامها بأمير مارسيلك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلاروشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته الكلبية . وفى ٢٨ يناير رفعت الدوقة سن معنوية المتمردين إذ ولدت ابنا لمارسيلك (٧) ، وارتبط كثير من الفرونديين بكرائم النبيلات فرسانا تابعين لهن ، فكن يشترين دماءهم بابتسامه متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كونتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر فى روكروا ولنز . وإذ شمخ بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه فى ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقة لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة فى أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المخفر الأمامى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن عاطفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقى . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته باعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق فى محاولة لاسترجاع نظام إقطاعى من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفى نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقتربة ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا عاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هى واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أوغسطس ١٦٤٩)، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئاً لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقشعت . واغتفر كل شىء ، ولم ينس شىء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالبثت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يحبس نبضهم ، أما مازاران ففى أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتى ولونجفيل فى فانسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضى المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة »(٨) وقال ريتز ذاكرا تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح »(٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذى لابد قد ساءل نفسه : أى نوع من الملكية ذاك الذى استحال هشيما بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمناورة فى بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذى لايقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكردينال جرأته فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للثأر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتى ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو في حلف جديد . وفى سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية فى فرنسا .

وفى ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مقاليد الحكم فى يده ، وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة فى تهدئة البرلمان أيد نفى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته فى نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفى مارس ١٦٥٢ أوفـــد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك مالم يعد هو أو ابنته ليستنفرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأنى بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن مارى لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان فى طفولتها حين نفى ريشليو أباها . وكان جاستون يلقب رسميا — « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته مارى بوربون ، دوقة مونبانسييه ، فهى « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هى « المدموازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت « الجراند مدموازيل دمونبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للنال

والنسب، وكانت تقول «انني أنتمي إلى بيت لا يفعل إلا ماهو جليل نبيل»(١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها يكره أن يخوض المعمعة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درعا وخوذة، وجمعت من حولها لفيفا من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت ورفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوي الوفاض، وأقسمت أورليان يمين الولاء للـ « عذراء » الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكيا، وأوشك أن يأسر الملك، والملكة، والكردينال؛ ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة لا مجازا. وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير — وهم « الفروندیون » هنا أيضاً، رفات القديسة جنفييف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران. أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كوندیه ، ثم يغلقوها فى وجه جيش الملك (٢يوليو١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة .

وغدا كوندیه سيد باريس ، ولكن الرءوس المتزنة أخذت تنقلب عليه . ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير . وفى ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدى مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار فى المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وعمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا ، وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفى طوعا ، تاركا الفروندیين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التى طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفى ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشعورى — بحق الملوك الإلهى . وماوافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس فى نفسه من القوة ماشجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى فى جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كوندیه إلى بوردو ، وخضع البرلمان فى بطء ووقار ، واعتكف

النبلاء المتمردون فى قصورهم الريفية . والتمست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور — رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهى تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أى قضى على أملها فى الزواج من الملك . وفى عامها الأربعين أحبت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيرا ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج ، فلما عزما عليه برغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ — ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له فى شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثا دبلوماسيا فى روما ، واعتكف فى ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعى للخلق ، بما فى ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأننى لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف ، وحين أعجزنى العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بمدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها العدد الكبير من العشاق ، لا فى بيتها فحسب ، بل فى مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيرى المكشوفة معها ستارا لصلتى بها . . . واستقر رأيى على التمادى فى خطاياى . . . ولكنى كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتى (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى فى تخليص نفوس غيرى وإن لم أكترث لخلاص نفسى » (١١).

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وعاد سيداً على المملكة ، وخادما لملك ما زال راغبا فى التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذى أعان على محاربة كونديه والأسبان بإرساله ستة آلاف جندى ،

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر فى « معركة الكثبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس فى احتفال رسمى مهيب ، ثم نزل عنها لانجلترة طبقا للمعاهدة . وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها ، فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها فى الالزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوربا كله فى حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداق قدره ٥٠٠ر٠٠٠ كراون ، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها فى ولاية العرش الأسبانى . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كونديه شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير العنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به فى بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة فى أوربا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران فى الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء فى تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التى سرعان ما نسيت خيانة كونديه ، لم تغتفر قط لمازاران جشعه وحرصه : ففى وسط الفاقة التى كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتى مليون من الفرنكات(١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى فى العالم(١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا(١٤) وبعد موته (٩ مارس

١٦٦١) كشف كولبير للملك عن المخبأ الذى أخفى فيه ثروته . فصادرها لويس ، وأثلج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغنى ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحو الطريق لنبالته . إنه الطبيب الطيب الذى قتل السكرديتال » (٢٥).

٢ — الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا بربع دمه . فقد كان نصف أسبانى من ناحية أمه آن النمساوية ، وربع إيطالى من ناحية جدته مارى مديتشى . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفى أخريات عمره كان أكثر شبها بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا .

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Dieudonné أى «عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبى وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقى الإهمال وسط نضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفى تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لأى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحيانا فى الملبس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه بالحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكيتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضاءل سناء المجد . ويؤكد لنا سان — سيمون أن لويس « لم يكد يعلمه أحد القراءة أو الكتابة » ، وأنه ظل جاهلا كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق » . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك فى أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لموليير وبوالو وراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التى وقعت فى العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتى هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد فى دعم الحجة فى جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لترى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقى الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتى جادا ممتثلا ، يبدو أطيب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن فى لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨).

فى ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز فى باريس على الموكب الذى رافق الملك الصبى ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى فى وصفه « مضى أبوللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته فى يده يحى السيدات والمعجبات اللائى ازدانت النوافذ بهائهن وملأ الجوهتافهن « يحيى الملك »(١٩) وكان فى إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهذب الذى طبع عليه وزيره ، فسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلا « لست أدرى ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلا »(٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى »(٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة فى نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحا وتيها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه فى ١٦٦٠، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة ، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكا كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السمت الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أننى أرى العظمة مجسمه»(٢٢)لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذ كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها . كتب سان ـ سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته »(٢٣). على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، ولفرنسا عن طريق البلاط ، ولأوربا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، ففى لطف دائما تقريبا ، لا فى غضب أو صرامة قط . . . إلا فى مناسبة واحدة وما عرف الناس رجلا طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع طما قبعته ، حتى الخادمات اللاتى يعرف أنهن خادمات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يخط رأسه إلا بعد أن يفارقهن »(٢٤).

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء قيصر الفلسفى ، أو سياسة أوغسطس الإنسانية البعيدة النظر . وفى هذا يقول سانت ـ بوف «لم يؤت أكثر من الأدراك السليم» ولكن حظه منه كان موفورا»(٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولنستمع إلى سان ـــ سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفا ،

معتدلا، حذرا ، سيدا على حركاته ولسانه »(٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه »(٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفقه ، وأفسده النجاح والملق . هنا نجده مغرورا غرور الممثلين متكبرا كبرياء الآثار الضخمة وإن كان بعض كبريائه ربما أضفاه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعا إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » فلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لى أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذى نشغله »(٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة فى أن يصحح بوالوله غلطه فى أمر يتصل بالذوق الأدبى . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله فى اتزان كثير . وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها »(٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التى تنطفىء بمجرد تملك النفس لما تشتهيه ، فإن عطاياه التى لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبدا » ومن كف عن اشتهاء المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء(٣٠) .

بيد أنه أوتى حظاً من الفضائل الجليلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعدالته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام موتفيل التى كانت تراه كل يوم تقريبا خلال هذه الفترة « فى هذا يجب أن تعترف كل العهود الملكية السابقة . . لهذا العهد بتقدمه عليها فى استهلاله السعيد »(٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذى كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفا على الأفراد منه على الأمم ، فى وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندى ، الذى أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ؛ وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج جيمس الثانى ، وعلى ولده ، حربا كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان فى استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهى . وقد أخبر ولده فى مذكراته(*) التى أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكى يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة فى التصرف فى جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين »(٣٢) . أنه لم يقل (أنا الدوله) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسؤه هذه الدعاوى ، التى حبها هنرى الرابع إليه انتقاضا على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفراده تطلعوا إلى هذا الملك الفتى فى ولاء دينى ، واستشعروا عزة الجماعة فى أبهته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغطرسة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها فى المذكرات » التى بدأها فى ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات فى حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الادراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفه فى هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاها على سكرتيرين كسوها ثوبا أدبيا قشيبا . وهى لا تقل جدارة بالقراءة عن أى أدب فى العصر الذى نحن بصدده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة الممركزتين في حاكم « شرعي » بدا لهم واعداً بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حذائه العالي وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي . سيدي الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أي فرد منكم بالمطالبة بها.(٣٣)» ثم نقلت وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكي ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييراً جذرياً . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة في البلاط — أكثرهم في « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفاً على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التي خصصت لهم في فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أي فضل يؤثرهم به الملك . وأعفى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للانضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة في البلاط . حقاً كانوا عاطلين كثيري النفقة ، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضاً ملزماً لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال — وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا في غير تحرج من أصحاب المصارف. وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءاً من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

فى السيد الاقطاعى أن يحافظ فى اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان فى بعض الأقاليم يؤدى هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيكون محل احترام الفلاحين ، وفى بعضها الآخر لايبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة فى البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التى انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عدد من أودت المبارزات بهم فى تسع سنوات (١٦٤٣–٥٢) فكانوا تسعمائة[٣٤]. ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة فى ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم وممن كان فى وسعه أن يركن إليهم فى دعم سلطة الملك المطلقة[٣٥] . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل فى إعداد المعلومات والتوصيات التى يبني عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات فى الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر فى الضرائب والإيراد والمنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحكم المحلى من أيدى النبلاء المستهترين ونيط به النظار الملكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتى بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا فى حكومة شديدة التمركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقها من حكم الأوليجاركيات البلدية أو النبلاء

obeikandl.com

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية اقليم أوفرن (١٦٦٥) للتحقيق فى استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية فى الإقليم ، رحب الناس بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال محظورة أو قاسية (٣٦). وبمثل هذة الاجراءات حل القانون الملكى محل القانون الإقطاعى .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمنطق قصارى مايتفق والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذى تكون على هذا النحو (١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠) وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ، وقد « أسهم بقوة فى تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشىء جهاز شرطة ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فترى مارك رينيه ، مركز نوابيه دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ، يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه وصفت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيئت بخمسة آلاف مصباح ، وأمنت تأمينا لابأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن فى هذا كله متقدمة جداً على أى مدينة أخرى فى أوربا . ولكن القانون أباح الكثير من أعمال الهمجية والطغيان . ونشرت شبكة من المخبرين فى أرجاء فرنسا ، يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيح اعتقال الأشخاص اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لانتزاع الاعترافات من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم فى سفن أسرى الحرب ـ وكانت سفنا كبيرة وطيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التى يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخفف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسيرون أزواجاً فى أغلالهم .

أمالويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً فى أن يأمر بأى عقوبة لأى ذنب . ففى ١٦٧٤ قضى بأن تجدع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود فى نطاق خمسة أميال من فرساى . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارما قال لوندە : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبى ؛ ولو انى اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك فى إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التى يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعى (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » le métier de roi . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل فى مملكته اطلاعاً على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأى مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة إلا يغيب عنهم أنه الملك ـ قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعن لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشير به » (٤٠) . وكانت عينه على كل شىء ـ الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه فى

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحى الحكم المعقد فى وحدة متسقة — كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه .

ولقد كلفه هذا من أمره عنتاً . كان هناك من يقوم على خدمته فى كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له فى كل حركة وسكنة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمى (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطانته وخدمه . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة فى الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثراؤه فى ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا فى اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته فى ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة — حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفى فترات من هذا الروتين اليومى « يتحدث إليه من شاء »(٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياى كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتى فى جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم »(٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظباً عليها ساعات سبعاً أو ثمانى طوال ستة أيام فى الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك فى تلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفى طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حبب فيه كل القلوب)(٤٣) ولقد ثابر على هذا التفانى فى تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافياً . « فما كان ليحسم فى أمر عفو الساعة، ولا دون مشورة»(٤٥) ثم أنه يختار مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم ـ ككولبير ـ من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم» . كنت بعد أن اختار وزرائى لا يفوتنى أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم .. وهكذا أحطت بآلاف الأشياء التى أفادتنى فى تحديد طريقى(٤٦) »

وحكمت فرنسا ، فى أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت فى أى عهد مضى لم يبرغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة فى خيوط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكيم .

٣ ـ نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات فى عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذى شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، ونشط نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم فى احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمى الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون الموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محددا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعال الذى جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس فى المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين الموميين أضخم ثروة اقتناها فرد فى جيله .

وفى سنه ١٦٥٧ كلف المعمارى لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفى الفخم المترامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل(٤٠)، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال »(٤٩). وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنى ، وموليير ، ولافونتين ، ليجعل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون فى مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفى ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه فى فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف فى ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير فى حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار Quo non) ascendam ?) (إلام لا يجوز لى أن أرقى ؟) — الذى شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التى رسمها لبرون تشمل صورة للانسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعته أمه بأن فى ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفى ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفي الفخم المترامي الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليونا من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال » . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنيي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون فى مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفى ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه فى فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف فى ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير فى حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascendam ? » (إلام لا يجوز لى أن أرقى ؟) — الذى شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن احدى اللوحات التى رسمها لبرون تشمل صورة للانسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا ان أقنعته أمه بان فى ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفى ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارتنيان ، بطل قصة ديماس الأب) . وأصبحت

المحاكمة التى اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا فى تاريخ العهد . وكانت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبرئ ساحته ، غير أن الأوراق التى عثر عليها فى قصره الريفى أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفى ومصادرة أملاكه ، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذى كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوى فى سجنه بقلعة بنيرول بپيدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسى ، وأنذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ ـ كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكى أراقبه .. وهو رجل منحته ما استطعت من ثقة ، لأننى كنت عليما بذكائه وجده وأمانته(٥٠) » وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة فى الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئاً من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضريباً لكولبير فى تفانيه الدءوب فى خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاى ، إنى مدين لك بكل شىء ، ولكنى أدفع دينى .. باعطائك كولبير(٥١) » .

كان جان باتيست كولبير ابن قماش فى رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطه ، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحـــد قومياً ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية ممركزة ، ويهيء لها الأساس المادى لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً فى العشرين (١٦٣٩) وماابث أن شق طريقه بجهده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هى إعادة تنظيم مالية الأمة . وفى ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المبانى ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفى ١٦٦٥ عين مراقبا عاما للمالية ، وفى ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للخاصة الملكية . ولم يرق رجل آخر فى عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه الهمة ، ولا حقق مثل ماحققه من أعمال . بيد أنه لوث أرتقاءه بمحاباته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى فى مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكراً بالقوانين القائمة تعجلا لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها فى الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبداً ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم فى إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل فى إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب الماليين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلا ٣٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه(٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش فى ترف لايقوى عليه من لايملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك فى الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

فى جميع المخالفات المالية التى ارتكبت منذ ١٦٣٥ ، والتى اقترفها « أى شخص أيا كانت صفته أو حالته(٥٣) » وطلب إلى جميع موظفى الخزانة « وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم » وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها فى طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكب تشغيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعقت الطبقات العليا لهـــذا « الأرهاب الكولبيرى » ، أما الطبقات الدنيا فصفقت له استحسانا . ونظم رجال المال فى برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح فى وجوههم ، ولقيت الحكومة عنتا فى إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات ، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا(٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجل الوفر فى خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين فى وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذى اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التى تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدى أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيرى الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفض تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين فى البلاط الملكى . وأمر كل موظف الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التى لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة فى ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية فى ١٦٦٧ لكى يمول « حرب الأيلولة » واسراف فرساى .

بيد أن أسوأ مامنى به من إخفاق كان فى احتفاظه بنظام الضرائب

القديم . ولعله لو قلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان ـ التاى (الرءوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التاى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أعفى منها الأشراف والكهنة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » ـ التى تنتظم باقى السكان وكان يطلب إلى كل إقليم أن يجبى مبلغا محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دوريا كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أداؤه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير(٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثرا باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليونا من الأنفس يتكاثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولدا . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولدا (٥٧)) وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تكاثر الأديار لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا(٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولكن حتى فى هذه الحال ، لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والمطاعم ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلا بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز فى إقليم من الفائض فى آخر . ولم تخل أية سنة من مجاعة فى

مكان ما بفرنسا (٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ – ٥١ ، ١٦٦٠ – ٦٢ ، ١٦٩٣ – ٩٤ ، و ١٧٠٩ – ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان فى بعض الأقاليم ثلاثين فى المائة . وفى ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان دينا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاد تتعهد أفراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول المبذورة بالحب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضى المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١).

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المتكاثرين ، وجيوش الملك المتعاظمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى القوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ، فطبقة الفلاحين المتمرسة بالمشاق تزود البلاد بعشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفرا الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينثن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقابية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، وماليتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعمالها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا فى كسب الأسواق الأجنبيه بجودة التصميم والصقل فى المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطى للاناقة يدعم الحرف الكمالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، وتجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأمم كولبير مصنع جوبلان فى باريس تأميما تاما ، وجعله نموذجا فى الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاء من الضريبية ، والقروض التى تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البندقة فى سان ـ جوبان ؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ؛ وأنشأ بروتستنتى هولندى فى أبفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذى اقرضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال فى فرنسا ٤٤٫٠٠٠ ، وكان فى تور وحدها ٢٠٫٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آنئذ مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية فى الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التى آمن بها كولبير هوى فى نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكى ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرته للشعب . وغدت الورش

فى اللوفر ، والتويلرى ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس يتتلمذ فيها الصبية من الصناع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن موسوعة للفنون والحرف ، ووصفا مصورا لكل الآلات المعروفة(٦٢). ونشرت أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو — وهو يبنى الواجهة الشرقية للوفر — حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠ر٠٠٠ كيلو (١٠٠ر١ طن) (٦٣). على أن كولبير عارض إدخال الآلات التى ينجم عنها تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة الكومونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع فى هذا التنظيم توسعا أوشك أن يكون خانقا . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ؛ وأنشئت اللجان فى جميع قاعات المدن لفحص العيوب فى إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت علانية عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عاد المخالف إلى مخالفته وبخ فى اجتماع للطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به وتنكيلا(٦٥). وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الأيتام من ملاجئهم ليخدموا فى المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال كولبير للملك فى اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال فى المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكرى . فالكسل وعدم الكفاية ، والشتم ، والأحاديث النابية ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع فى الكنيسة — كل أولئك يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة — وقد تبلغ اثنتى عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلعا يحدد

رب العمل أسعارها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومى الذى يتقاضاه مهرة الصناع فى المدن الكبيرة فكان اثنى عشر سوا (ثلاثين سنتا) فى اليوم ، ولكن السو الواحد كان يشترى رطلا من الخبز(٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التى تعفى العمال من العمل ، وبقى من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة فى السنة تسعين(٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال فى روشفور لأنهم شكوا ضآلة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها فى العصور الوسطى(٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم فى الصناعة كما أخضعت فى الحرب .

أما فى مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة فى جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغى أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتى داخل الأمة ؛ وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمى القيمة بوصفهما وسيطين فى المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للامة « توازنا تجاريا فى صالحها » أى زيادة فى الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وانجلترا ، والأقاليم المتحدة — وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها زمن الحرب . وهذه هى « المركنتلية » mercantilism ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها فى عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التى كانت فى العصور الوسطى تطبق على الكومون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الكومون وحدة للانتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها فى الأسواق الأجنبية وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما الكماليات ، التى لا نفع لها فى الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد كبير ؛ ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال . وهكذا نرى طبيعة التنافس التى قطر عليها الإنسان ، فى تلك الغابة التى لا تخضع لقانون والتى تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها الوطنى وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .

إذن فوظيفة التجارة فى رأى كولبير (بل فى رأى صلى وريشليو وكر وموبل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخامات . ومن ثم نراه فى ١٦٦٤ ، ثم فى ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التى هددت بأن تنافس فى فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية فى الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا . وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير الكماليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الاقليمية والبلدية والعرفية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتى ويجاهد فى حماية صناعاته ، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعى أو تنازع الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كؤودا فى طريق الاقتصاد القومى وحاول كولبير بمرسوم أصدره فى ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن للمقاومة كانت عنيدة ، ففى نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله لتوسع التجارى بإصداره اللوائح المعقدة التى استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ،هنا عبارة قدر لها أن تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ بمجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية فى هدفها الأول ؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها فى فيتريه ببريتانى وبناء على اقتراح من بيير بول دريكيه، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل فى حفر قناة لانجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاى عن طريق الرون والقناة والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الالآف العشرين التى تعخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستمائة . ومن ثم بني شيئاً فشيئاً البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لاتتجاوز العشرين ، وأصلح للرافىء وأحواض السفن ، وألزم الرجال فى غير هوادة بالانخراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التى فرضها عليها تعطيلا مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية للمنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر الكاريبي ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسليا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ماأصابها من اضمحلال لقلة السفن الفرنسية . وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقته . ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار . وبارك اشتراك فرنسا فى تجارة الرقيق ، ولكنه جاهـــد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة(٧٠) .

وقد شجع الارتياد الجغرافى وإنشاء المستعمرات ، أملا فى أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب . وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا ، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهنـــد ، وسيلان . وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣) . وأسس كادياك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت . واستكشف لاسال المسسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتحها) ، وهبط فيه فى مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات . واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك . فسيطرت فرنسا على وادى السانت لورنس والمسسبى فى قلب أمريكا الشمالية .

جملة القول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإنتشار . فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهنا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذ النحو دولة بهذه العظمة فى نواح بهذه الكثرة . صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شكلت القالب الاقتصادى لفرنسا الحديثة ، ولم يفصل نابليون أكثر من مواصلة بجهود

كولبير ومهاجمتها سواء فى الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء مالم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التى كانت تنحر فى جسد فرنسا فى شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التى فرضها ، شأنها فى هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هى التى التى أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإقفال موانيها فى وجه بضائعهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبيها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (فى سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس فى الشوارع (٧٢) .

٥ ـ الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعيرة المركز الاجتماعى . فهو فى أوساط القوم غاية فى البساطة — سترة سوداء تغطى فى تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما فى الصفوة فهو بهى فاخر ، وهو فى الرجال أبهى وأفخر منه فى النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى فى جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدنى . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك البار وكات التى أشاع زيها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر للملك الشاب الكستنائى أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر المستعار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان مطروح حامله — وسواء فى فرنسا أو انجلترة أو ألمانيا ، بمقوص مستعارة مبدرة تنسدل

إلى الكتفين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدون سواسية إلا الضحا أمهم. أما اللحى فحلقت ، وأما الشوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى مافوق الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليدين في الجو البارد . واستعيض عن طوق الرقبة المكشكش العالى بلفاع حريرى يعقد هينا حول العنق . وأخذ يحل محل الصدرة ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسراويل « كيلوت » تمتد إلى الركبتين وتقفل بعشابك أو تعقد بأشرطة عندهما ، ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهى أكمامها بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتللا . واختص القانون النبلاء بتحلية ثيابهم بوشى من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوى اليسار من أى طبقة تجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت عادة من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى لحفلات الرقص .

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن . وكانت صداراتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج فى كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة المطوقة والأكمام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفلت الأرواب بالتطريز والألوان المشرقة ، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة ، وربط الشعر بالأشرطة ، ورصع ، وعطر ، وجعد ، فى تأنق . . وظهرت أولى مجلات الأزياء فى ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والفخامة ، وأن بقيت جلافات كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال يبصقون على أرض الحجرة ، ويبولون على سلم اللوفر[٧٣] وقد ينقلب المزاح وحشيا أو بذيئا . ولكن الحديث كان رشيقا مهذبا ، ولو دار حول الفسيولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، فيتكلمون فى عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والحذلقة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشتد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد فى الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يمسح الضيوف أصابعهم فى غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة فى هذا العصر — عصر الاتيكيت والبروتوكول . وتضاءل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون فى الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة فى الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذى يجمع بين كرم النشأة والعادات و بين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة فى المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة فى جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكلتاهما حذقت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل فى قضاياه(٧٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتداً فى ترتيل « القداس الأسود » التماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشربة الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانشينى ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جراموز ، ومدام دمونتيسبان خليلة الملك وفى ١٦٧٩ خصت لجنة نشاط «لافوازان» ووجدت الأدله على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق(٧٥) . وأحرقت لانوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل فى أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإعانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة فى وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبرر يدعو للزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة ، أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم فى الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لاتعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليلة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الآزواج يغضون عن خيانات زوجاتهن . يقول شخص فى مسرحية لموليير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه فى هذا البلد(٧٦) ؟ » فى هذا المناخ الكلبى نشأت أمثال لاروشفوكو وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلانكلو ، جملته بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلا حر الفكر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) « مجردة من مشاعر الحس .... وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لاتكاد تلحظ الأمر(٧٧) » . ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المعارف قدرا

لايستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما فى هذه التجارة الدوليه ، وقرأت مونتينى وشارون ، بل قرأت ديكارت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقدجعلت مناقشتها حول الدين فى فترة لاحقة مدام دسفينييه ترتعد(٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك فى هذه الدنيا كما ينبغى ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه» (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريبا ، ولكنها بدلا من هذا انزلقت إلى البغاء وهى لاتتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت فى استهتار « إن الحب عاطفة لاتنطوى على أى التزام خلقى(٨٠) » فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن النمساوية بحبسها فى دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام . وفى ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد الحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال فى فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية(٨١) ، من الملحن لولى إلى كورنيه العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولى ليجرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه — زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها(٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاقى قط ، فقد كانوا يثقون فى قلبى ، وكان كل منهم ينتظر دوره(٨٣) » .

وفى ١٦٥٧ افتتحت صالونا ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحيانا زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أى امرأة فى جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو سيان — سيمون :

/nj180degree.com

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله فى صالونها نظراً إلى الاتصالات التى يكونها عن هذا الطريق . ولم يدر فى صالونها أى لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث فى الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكى الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير. كان كله حديثا مهذبا خفيفا محسوبا ، وكانت هى نفسها تغذو الحديث بذكائها وعلمها الغزير(٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت فى هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلعت عليها أمانتها البسيطة وأياديها الكثيرة سمة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائما من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت بينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريبا حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطايب الطعام التى يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسعيني ، الذى كانت رسائله التى يبعث بها من انجلترا عزاء لشيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائما ، ويعجبني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم فى النهر لهذا السبب(٨٥) . » وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاما أن يبتلى الله المرأة بالغضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها(٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسنيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم فى لطف ، وماتت فى أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك فى وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب فى تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لى بأن أترك لابنه ، الذى

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشترى بها كتبا(٨٨) » . واشترى الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذى توج هامة المجتمع الفرنسى هو أن حافز الجنس امتد إلى الذهن ، وأن النساء تنبهن ليضفين الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال روضهن النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ؛ وفى هذا كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) فى فرنسا أوج الحضارة . فى ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل ، فإذا جمعن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشىء عن الرقة واللطف ، أصبحن قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفى هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة ، بل فى مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ، ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال فى عهد لويس الرابع عشر منه فى أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة . كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر فى ألطف غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث ، البالغ العطف ، والرقة ، واللطف ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي(٨٩) » وقد عزا كثير من الرجال الفضل فى تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعى بين الجنسين (٩٠) .

وفى الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبوييه كان أول الصالونات يسطع بهائه الأخير . أمه كونديه وإن لم يلمع فيه ، وأمه كورنيى ، ولاروشفوكو ، والسيدتان لافاييت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل . هناك أرست النساء للمتحذلقات les femmes précieuses قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات ، ورحلت مدام درامبوييه إلى الريف ، ومع أن « أوتيلها » (قصرها) فتح بعد

ذلك أبوابه ثانية لمبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلياته Les Précieuses ridicules (المتحذلقات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته فى ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، فى بيوت السيدات دلا سابلير ؛ ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية فى هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ، والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . فى صالونات كهذه زكت النساء العالمات femmes savantes اللائى أثرن سخرية موليير فى ١٦٧٢ . ولكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير فى لحظاته الفلسفية كان يقر بحق النساء فى أن يشاركن فى حياة جيلهن الفكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ ـ بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفى ١٦٦٤ كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ، والخدم والحشم . وقد زاد العدد فى أوج اكتمال فرساى إلى عشرة آلاف من الأنفس(٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى ، جديرة بأن يبذل فى سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر فى بهاء البلاط كان فى الأثاث المترف الذى ازدانت به الغرف ، وبعضه فى لباس الحاشية ، وبعضه فى حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه فى جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال ، والشهرة ، والسلطان . ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافاييت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولكن بقى منهن عدد يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة فى اللوحات التى وصلت إلينا من هذا العصر على شىء من البدانة ، يبرز لحمها من صدارها ، ولكن من الواضح أن الرجال كانوا يحبهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف فى اللباس والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجى الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامى . وضرب الملك المثل فى بدعة اللباس الغالى ، لا سيما فى استقبالات السفراء ، فتراه وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ، ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأفنى الأشراف ونساؤهم نصف دخل ضياعهم فى الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم شأنا أن يستخدم أحد عشر خادما وعربتين ، أما الأثرياء فكان لهم من الاتباع خمسة وسبعون فى بيوتهم ، ومن الخيل أربعون فى مرابطهم (٩٣) . وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للمقامرة أهم ضروب الترفيه فى البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ كبيرة ، تستحثه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التى خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنكات فى لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هذا الهوس من البلاط إلى الشعب . كتب لابرويير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم بالقمار ، وهو لعبة رهيبة ... ينوى لاعبها القضاء المبرم على غريمه ، وينتشى بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الحظوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ، أو على مكان فى الفراش الملكى ، إلى جو من الشبهات ، والافتراءات ، وتبادل الخصومات الحادة . قال لويس « فى كل مرة أعين إنسانا فى وظيفة

شاغرة ، أسخط مائة شخص ، وأجمل شخصاً ناكراً للجميل(٩٦) ». وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة فى المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سلن — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات فى أحد المواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفى ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة عاطلا من اللقب تتقدم دوقة فى مجلسها(٩٧) . ولا ريب فى أن ضربا من الترتيب المقرر كان ضروريا لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثنى الزوار على ذلك المظهر المتسق الذى بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور للإتيكيت ، ومعايير للسلوك والذوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءا من التراث الأوربى .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذى قد يحمل البعض على قتل الملك ، فناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة فى الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنكرية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساى وكأنها جنة الله فى أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية فى القناة ، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى ، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل فى الدنيا أفخم ولا أكتم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تعكس قاعة المرايا فى مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون فى رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوفان ،

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه فى الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به « واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم[٩٨] » ، وأسس فى باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه فى رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون فى بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل فى إنجلتره وآل باخ فى ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صورا رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفى ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا فى باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات فى عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس فى ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فما لبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضا هبة من هبات ايطاليا . فقد أتى به الشفاليه جيز صبيا فلاحا فى السابعة من فلورنسة إلى فرنسا فى ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخدمته فى مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmiton) . وهناك ضايق زملاءه الخدم بالتمرين على الكمان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف فى فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كمانا . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين بنفقته الخاصة . وبفضل هذه الأوركسترا الوترية الصغيرة تعلم القيادة والتلحين — الموسيقى للرقص ، والأغانى ، والكمان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولحن ثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق موليير وتعاون معه فى عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات موليير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضاهى انتصاراته موسيقيا . ففى ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان فى الحصول على احتكار الأوبرا فى باريس . وقد وجد فى فيليب كينو Quinault مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجا معا سلسلة من الأوبرات كانت ثروة فى الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط فى فرساى ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذى بُنى من قبل لولى فى شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم فى كثرة جعلت الشوارع تختنق بالمركبات ، فاضطر الرواد فى كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفى الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول . وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخنث المتصنع(٩٩) . ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن للسادة والسيدات بالغناء فى عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون فى ذلك غض من أقدارهم(١٠٠) . ورفع لويس لولى إلى مقام النبالة سكرتيرا للملك ، وشكا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للولى : « لقد شرفتهم ، [illegible] بين زمرتهم(١٠١) » . وحالف التوفيق لولى فى كل شىء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدفة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتعفن ، ومات المؤلف الموسيقى فى الخامسة والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهـــد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التى كانت مثلا آخر على الوراثة فى الفن ، والتى أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتكرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم فى كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » فى كنيسة الملك الصغيرة بفرساى ، وكان أشهر عازفى الهاربسيكورد فى ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التى وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذى وضعه باسم L,art de toucher le clavecin (وهو الاسم الفرنسى لمقابله الانجليزى Clavichord) فى بحث ذلك الألمانى العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ، أكانت للموسيقى فى دم آل كوبران ، أم فى بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هى التى تصنع الحضارة .

٧ — نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن فى معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هـذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحيانا كثيرة — يغضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيـداً عن الرباط الزوجى . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال مارى مانشينى ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجا أمه والكردينال أن يسمحا له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النمساوية وبخته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل فى شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد مارى آسفا لتتزوج رجلا من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفى ليحصل على

عروس للويس هى ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذا انقطع نسل الذكور فى الملوك الأسبان ، أن تأتى هـذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا فى ١٦٦٠ ، وكلاهما فى الثانية والعشرين ، فى كل البهاء والبذخ الذى سحر دافعى الضرائب .

أما مارى تريز فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أعانت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذى نشئت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجما فى الوقت الذى ترمق فيـــه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفـولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، فى نفس سنة زواجهما ، فى زوجة أخيه هنريتا آن ، جميع المفاتن التى تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنريتا هذه فهى ابنه تشارلز الأول ملك انجلتره ؛ وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنرى الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز فى أكسفورد ، فرت ملـكة إنجلتره إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتعقبون الأم المريضة ، ففرت ثانيـــة ، وتسللت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهـد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التى تركتها أمها فى رعاية الليدى آن دولكيت ، فقد عاشت عامين فى كنفها بانجلتره قبل أن تهرب هى أيضاً عبر المانش فى

---

(١) روت مدام دمونتسبان . التى لم تخل من تحيز فى مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقى قزماً زنجياً لمارى ، وكيف ولدت مارى « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها » وعزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « فضيحته » بباريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونه ، وأصبحت راهبة . (١٠٢)

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التى جاءت بها حرب الفروند . ففى يناير ١٦٤٠ شاركت أمهاوآن النمساوية فى هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفى ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباها ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرءوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت حدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتها فى جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارلز الثانى يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلا قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءاً عالياً ، ولوعاً بحلى الأناث ، وأجساد الذكور ، شجاعا كأى فارس فى ساحة الوغى ، ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، فى هذا البلد الذى كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على صحبتها صحبة شفالييه اللورين ، وشفالييه شاتيون . ووقع فى غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش فحسب — مع أنها عدت أجمل مخلوق فى البلاط(١٠٣) — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذى حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكم فى كل جميل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما فى خلقها من « حلاوة وضياء »(١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة فى وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ويمازحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها فى المشى فى البستان فى فونتنبلو

أو ركوب الزورق فى القناة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت فى هـذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه ، أما هى ، التى بذلت إخلاصها فى الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخاً آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها فى الحياة .

فى سنة ١٦٧٠ ، وبنـــاء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى انجلترة لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضـد هولندة ، لا بل لتحضه على الجهر بكثلكته . وقد وعد بهذا فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر ، ولكن مامضت أيام على وصولها إلى قصرها فى سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ؛ وكونديه ، وتورين ، ومدام دى لافاييت ، ومدموازيل دمونبانسييه ، وأتى بوسويه ليصلى معها ، وأخيراً فى ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالسم بل بالالتهاب البريتونى (١٠٧) ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرءوس المتوجة ، وألقى بوسويه فوق جثمانها فى كنيسة سان — دنى عظة جنائزية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هى التى أعطت الملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دى لا فاليير ، فى مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت فى إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذى قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذى أصبح فيما بعد أسقفا لنانت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف لهنريتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت فى غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولـكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يثوبه به » على حد قول أحد ناقديها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولـكن ضعفها هذا كان فى ذاته فتنة ، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة فى الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنريتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التى أرجفت بأنها هى ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هـذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التى كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتغطرسات العدوانيات اللائى يحطن به فى بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة فى حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولـكنها قاومت إلحافه طويلا ، وناشدته ألا يحملها عـلى خيانة هنريتا والملـكة ، ولـكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شىء يبدو حسنا مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره فى غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجا فى نزهات خلوية كالأطفال ، ورقصا فى المراقص ، وطفرا مرحا فى حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره فى الصيد تنسى مافى طبعها من إحجام وتردد ، وتركب فى تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها »(١٠٨) على حد قول الدوق دانجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك فى الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تخجل من وضعها ، وقد تعذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم فى تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكى ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبـــه بمدام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر فى التكفير عن آثامها بقضاء ما بقى من عمرها فى دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقى ، وفكر فى الحفاظ عليها فى دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب مونتسبان ، واستغراقه فى الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هى فلم تأبه فى البلاط بإنسان غيره . وفى ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة مارى — د — شايو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريرة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبها للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس فى القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك فى توبة الزهاد ما بقى لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسى شديدة القناعة ، بالغة السكينة ؛ لأنى أعبد جود الإله » (١٠٩).

أما خليفتها فى الحظوة لدى الملك فلا تظفر من الناس بمثل هذا الغفران العام . فقد قدمت فرنسواز أتيناييس روشوار البلاط فى ١٦٦١ ، وخدمت الملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركيز دمونتسيان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ، أما الأخريان فاختاها (١١٠). وكان لها غدائر مجعدة شقراء مرصعة باللآلىء ، وعينان أبيتان ناعستان ، وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة فى لون الزنبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة . وكانت تقية ، تحفظ أيام الصوم دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة فى تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص الملك(١١١) . ولكن سان ـ سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد من سرعة نبض الملك رجت زوجها فى أن يعود بها فورا إلى بواتو (١١٢) . ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة فى كومبيين ، ذهبت لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام فى حجرة مجاورة ، ولكنه وجد فى هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته وعليها (١٦٦٧) . أما المركيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل ، وجلل مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق بين المركيز والمركيزة ، وأرسل إليه ١٠٠ر٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن باريس ، وابتسم البلاط الذى تجرد تماما من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاما . وقد أعطت لويس مالم تستطعه لافاليير ـ أعطته الحديث الذكى والحيوية المثيرة . وكانت تفاخر بأنها هى وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملكة ستة أطفال — أحبهم وشكر لها صنيعها ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين مع مدام دسوبيز أو مع الآنسة الشابة دسكورای دروسيل ، التى خلع عليها لقب دوقة فونتانج . وقد حدت هذه الانحرافات بمدام دمونتسبان إلى

القماس نصيحة للشعوذات فى أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولـكن القصة التى زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هى فى أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فـكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتى لهنرى الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور فى بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الـكثيرة عقابا له عـــلى جرائم مختلفة ، وعمدت كاثوليـكية ، وربيت بين الفوضى والفقر المخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها فى العقيدة البروتستنتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذبح الـكاثوليـكى . فلما بلغت التاسعة أخذها أبواها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذى أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفى ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديرا للراهبات بعد أن عادت إلى الـكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ ، وتـكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فـكان كاتبا مشهوراً ، وظريفاً لامعا ، مشلولا شللا كاد يكون تاما ، مشوها تشويها بشعا . وإذ كان ابن المحام نابه ، فقد توقع النجاح فى حياته العملية ، ولـكن أباه الأرمل تزوج ثانية ، ونبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لايـكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديلورم وغيرها من النبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعاطى العقاقير القوية التى أتلفت جهازه العصبى . وأخيرا اشتد به الشلل حتى كاد يعجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه فى هذه

العبارات : « سأصف لك نفسى أيها القارىء على قدر استطاعتى . لقد كان جسمى حسن التكوين رغم قصر قامتى . ولكن العلة قصرتنى بقدم كامل . ورأسى أكبر قليلا مما يناسب جسمى . ووجهى ممتلىء ، أما جسدى فهيكل عظمى . وبصرى لا بأس به ، ولكن عينى بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقاى وفخذاى أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاى وجسمى زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسى فوق معدتى يجعلنى أقرب إلى حرف Z . وقد انكمش ذراعاى كما انكمش ساقاى ، وكذلك فعلت أصابعى . جملة القول أننى خلاصة للتعاسة البشرية(١٤٤) » .

وقد نمزى عن تعاسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمته باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة فى الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعاه — يرأس فى حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه ثمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ فى سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التى بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإنفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها فى كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكنها فى الدير ، لكى يعفيها من نذر الرهبنة ، ولكنها أبت . وأخيراً عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لايستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيفة

فى صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك فى الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كفت لجذب الآنسة دسكودرى ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك تينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفى رسائل تينون الماع إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزواج البرىء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن تينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفاءها ، ولكنها كانت تحاف الله أكثر مما يجب[١١٥] » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة للسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابعه وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلما . فكانت تقرأ له ، وتكتب ما يمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التى قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لاتحدث ضجيجا ، وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » فى خضم الفقر مرة أخرى وهى بعد شابه فى الخامسة والعشرين . والتمست من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذى ألغى ، فرتبت لهـــا آن ألف جنيه فى العام . واتخذت فرانسواز حجرة فى دير ، وتواضعت فى عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة فى البيوت الميسورة[١١٧] . وفى ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهى على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيه . ورفضت فرنسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ؛ أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه مابدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حدبها المتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها[١١٨]» . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة فى مانتنون قرب شارتر . ولم تعش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقبا جديدا ، وهو المركيزة دمانتنون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينا . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آنئذ ، فى ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة مالم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعفف حينا واستحسنت مدام دمانتنون مسلكه ، دون أن يكون لها قصد أمانى فيما يبدو[١١٩] ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبى عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبريتية باقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان لتعود إلى جناحها فى فرساى . وهناك ارتمى بين ذراعيها المشتاقتين ، فحبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقا فى عدة علاقات

آنة فى وقت واحد . وفى ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت للملكة — وكانت تلك أحدى الفظاظات الكثيرة التى جرح بها شعور مارى تريز . وثارت مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفة مماثلة — هى الوصيفة لخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقى على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثر تردد الملك الآن على الدوفينة للتحدث إلى مانتنون . وما من شك فى أنه أراد أن يجعل للركيزة خليلة له ، وأنها ردته عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود تائباً إلى للملكة(١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفى ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاما من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما للملكة التى وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وظن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا(١٢١) . وفى تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح فى ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان فى السابعة والأربعين ، وهى فى الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أى رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقى مستشارو للملك عنتا فى ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تذمر الأسرة للمالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، للتشبث أبدا بالنظام الطبقى ، فرأى أنه زواج مخيف(١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسعده للملك ، والوحيد الذى رعى عهوده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن فى حب للرأة لزوجها ما يكفيه من غيرها من النساء .

٨ ـ الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة فى أوربا . فالأمبراطورية أوهنها ما أصاب المانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها فى ثمانين عاما من الحرب العقيم التى خاضتها فى الأراضى المنخفضة . وانجلترة، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بعجلة فرنسا المعونات السرية لملكها. كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسما أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلعوا باعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالقائدين للمغوارين كونديه وتورين . وبدا للملك الشاب الذى يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليـــل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطانها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطانها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضى المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أبنو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — Ius devolutionis — ترث مارى تريز الأراضى

المنخفضة الأسبانية . صحيح ان مارى نزلت عند زواجها عن حقها فى الوراثة ، ولـكن هذا التخلى كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠ر٠٠٠ كراون ذهبى(١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطق ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لاعب الشطرنج هذا يميط اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لى موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) فى وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سعياً وراء حقوق آلت الى ، ومحاربة انجلترة دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرنى أن أرى فى خطة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لى فرصاً عظيمة للتفوق . وكان الـكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آنست فيهم التفانى فى خدمتى ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهيء لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هـذا أننى مادمت مضطرا على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لى ان القى به فى الأراضى المنخفضة من أن أطعمه على حسابى . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترة أستطيع ترتيب قواتى وهيئة مخابراتى (أى جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتى فى هولندة بنجاح أعظم (١٢٤) ».

تلك هى النظرة الملـكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمنا أو أوفر دخلا ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للغرائز المتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالى النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبى ، وقد تحسن موقف الدولة فى الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التى ستحصدها الحرب ، فإن الناس لابد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضى بعلة بطيئة طويلة ، وأى ميتة أفضل للرجال من الموت فى خدار المعركة على ساحة المجد ، وفى سبيل الوطن ؟

وعليه فى ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضى المنخفضة الأسباتية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عـدد الفرنسيين ٥٠٠ر٥٠

مقاتل ، والأسبان ٠٨٫٠٠٠ وما لبث الملك أن دخل شارلروا ، وتورنيه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها فى موكب نصر ؛ وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن فى كل خطوة ؛ حتى الصحاف الفضية للضباط فى معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزانسون ، بين برجندية وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة فى جنب فرنسا . وفى فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسى عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر فى كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش — كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكللا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وانجلترة بالانضمام إليها فى حلف ثلاثى ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حربها السياسية أو التجارية ستذوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السرى الذى أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضى المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثانى ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينقضى عام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تتريث حتى تقع الثمرة فى حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المحنكون انجلترة والسويد ، فأنهيت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلروا ، ودويه ، وتورنيه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ؛ وكورتريه . وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه فى ١٦٧٢ عاود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقى — وهو هولندة لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة فى فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولا هاى قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوربا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففى أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج فى « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللورين فى ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزويك — لونيبورج فى ١٦٧٤ ، وفى ذلك العام أكره البرلمان الانجليزى ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذى عوقبت به كبرياؤه . فجبى المزيد من الضرائب برغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبنى أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠٫٠٠٠ مقاتل . وفى يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بيزانسون ثانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش — كونتيه من جديد . وخلال ذلك قاد تورين فى حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودمر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلزاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذى أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفى ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ فى بادن ، ودفن بأمر لويس فى كنيسة سان — دنى باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كونديه العظيم » محل تورين بعد ماحقق من انتصارات دامية فى الأراضى المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الالزاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعدأن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم فى شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة فى الأراضى المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهللت فرنسا لملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يعد محتملا . فنشبت الثورات فى بوردو وبرتنى ، وكان الفلاحون فى جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب فى الدوفينيه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور(١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضى التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فرانش — كونتيه ، واثنتى عشرة مدينة دفعت بحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضى المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الالزاس واللورين فى قبضتها . وكانت هاتان للمعاهدتان — نيميجن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان — آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنهما لم تكونا هزيمة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل فى أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بجيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورائه ، واستغلالا مخزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الزاحفين ، أنشأ فى الالزاس ، وفرانش — كونتيه ، وبرايسجاو « غرفاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هذه المناطق ، وأغريت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكا عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم فى الطريق بين سافوا وميلانو(*) . فلما تلكأت أسبانيا فى تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرابانت ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع فى طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس فى الواقع سلطته إلى الراين . فتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذى بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع فى الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالا بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون فى صورة إله على أقبية فرساى ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بمنعته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا فى حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياه الفيلسوف لايبنتز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غـــير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً(١٢٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس ، وإلى الغرب من الفستولا ، بدأت كل أوربا المثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(* لقب « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا (١٦٢٩) سر المفاوضات بين لوبس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيولى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحـــديد) ، والذى مات فى الباستيل فى ١٧٠٣ (١٢٦)